الذكر للغزالي

جمع وترتيب
الدكتور / مسعد السيد

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على النبي وآله وبعد :

فهذا حديث إلى أخ لي حبيب . قد أراه في كل صف من الصفوف . قد أراه بين كل اثنين . . . أراه في كل مسلم رضي بالله ربا، وبمحمد، صلي الله عليه وسلم نبيا ، وبالإسلام دينا . . .

أخ لي .. . . لم يسلم من أخطاء سلوكية، وكلنا خطاء. . لم ينج من تقصير في العبـــادة وكلنـــا مقصر! ! . . ربما رأيته حليق اللحية، طويل الثوب ، مدمنا للتدخين ! ! . . بل ربما أســـر ذنوبـــا أخرى ونحن المذنبون أبناء المذنبين ! ! .

نعم ! أريد أن أتحدث إليك أنت أخي حديثا أخصك به ، فهل تفتح لي أبواب قلبك الطيب ونوافذ ذهنك النير؟! ! . و الله الذي لا إله إلا هو إني لأحبك . . أحبك حبا يجعلني ... أشعر بالزهو كلما رأيتك تمشي خطوة إلى الأمام ! ! . .

وأشعر والله بالحسرة إذا رأيتك تراوح مكانك أو تتقهر ورائك !!. أحدثك حديثا اسكب روحي في كلماته . وأمزق قلبي في عباراته . .

إنه أخي حديث القلب إلى القلب . حديث الـــروح للأرواح يسري وتـــدركـــه الـــقـــلوب بلا عنـــاء. هل تظن أن أخطاءنا أمر تفردنا به لم نسبق إليه ؟! . كلا. .. فما كنا في يوم ملائكـــة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكن نحن بشر معـــرضـــــون للخطيئـــة، يـــذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم . وكل من ترى من عباد الله الصالحين لهم ذنوب

وخطايا. قال ابن مسعود- τ- لأصحابه وقد تبعوه : "لو علمتم بذنوبي لرجمتموني بالحجارة"، وقال حبيبك محمد، صلي الله عليه وسلم : "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم) والله أخي لقد أحرقتنا الذنوب ، والمتنا المعاصي ولكن أيها الحبيب المحب أرعني سمعك يا رعاك الله ! ! . إن هذه الخطايا ماسلمنا منها ولن نسلم ، ولكن الخطر أن تسمح للـــشيطان أن يستثمر ذنبك ويرابي في خطيئتك . أتدري كيف ذلك ؟ ! ! . . يلقي في روعك أن هذه الذنوب خندق يحاصرك فيه لا تستطيع الخروج منه . . يلقي في روعك أن هذه الذنوب تسلبك أهلية العمل للدين أو الاهتمام به . ولايزال يوحي إليك : دع أمر الدين والدعوة لأصحاب اللحى الطويلـــة! والثياب القصيرة! دع أمر الدين لهم فما أنت منهم ! ! .

وهكذا يضخم هذا الوهم في نفسك حتى يشعرك أنك فئة والمتدينون فئة أخرى. وهذه يا أخي حيلة إبليسية ينبغي أن يكون عقلك أكبر وأوعى من أن تمر عليك . فأنت يا أخي متدين من المتدينين . . أنت تتعبد لله بأعظم عبادة تعبد بها بشر لله . أن تتعبد لله بالتوحيد. أنت الذي حملك إيمانك فطهرت أطرافك بالوضوء، وعظمت ربك بالركوع ، وخضعت له بالسجود. أنت صاحب الفم المعطر بذكر الله ودعائه ، والقلب المنور بتعظيم الله وإجلاله . فهنيئا لك توحيدك وهنيئا لك إيمانك . إنك يا أخي صاحب قضية . . أنت أكبر من أن تكون قضيتك فريق كروي يكسب أو يخسر. . أنت أهم من أن تدور همومك حول شريط غنائي أو سفرة للخارج . . أنت أهم من أن تدور همومك حول المتعة والأكل . فذلك كله ليس شأنك ، إن ذلك شأن غيرك ممن قال الله فيهم

أخي أنت من يعيش لقضية أخطر وأكبر هي : هذا الدين الذي تتعبد الله به. . . هذا الدين الذي هو سبب وجـــودك في هذه الدنيا وقدومك إلى هذا الكون (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . (الذاريات إن أود أن أذكرك مرة أخرى أن تقصيري لا إياك في طاعة ربنا أو خطئي وإيـــاك في سلوكنا لا يحللنا أبدا من هذه المسئولية الكبرى ولا يعفينا من هذه القضية الخطيرة انظر يا رعاك الله إلى هذين الموقفين : وأرجو أن تنظر إليهما نظرة فاحصة . وأن تجعلهما تحت مجهـــر بـــصيرتك : واسمع عن كعب بن مالك -τ - حيث وقع هذا الصحابي في خطا كبير، وهو التخلف عن رسول الله صلي الله عليه وسلم . ولو ظللنا نتكتب عن ذلك ما وفينا الأمر حقه ولكن جعلنا الحديث جامع بين ذلك وذاك فكانت السلسة هكذا تحدث الدعاة الهدف منها هو وضع الطريق لجيل التمكين حتى يتمكن الإيمان من القلب فطوفنا على خطب العلماء وكتبناها وأضفنا ما يمكن في باب مستقل حتى تعم الفائدة وجعلنا كل خطبة في رسالة وكانت هذه الرسالة موجهة لجيل التمكين وشباب الصحوة فجزا الله العلماء خير الجزاء ونفعنا الله بعلمهم وجزاهم عنا خير الجزاء ..

واللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

خطبة الشيخ

محمد الغزالي

هذا

هو الذكر

أما بعد: فحديثنا اليوم إن شاء الله ــ عن ذكر الله تبارك اسمه، وتعالى جَدّه، ولا إله غيره ــ.

وذكر الله تعالى في هذه الأيام يقع بين طوائف مُتناقضة بينها بُعد ساحق .. هناك الماديون الذين لا يعترفون بوجود الله، ولا يُقرون بشيء له بتة، وإذا حدث أن عزفوا عن الجدل، ورغبوا عن الحوار، فإنهم في سلوكهم لا ترى لله أثراً في أحوالهم، ولا في أعمالهم، لا يعترفون به في كلامهم، ولا يرعوّنه بتة في أمرهم أو نهيهم، في رغبتهم أو رهبتهم..

وهؤلاء الآن يمثلهم في العالم الشيوعيون والماديون ومن إليهم ممن رفضوا الدين، وكرهوا أن ينقادوا له.

وهناك مَنْ يذكرون ربهم وقد عجزوا عن أن يفهموا معنى الذكر .. فهم يظنون الدين لغواً على الألسنة، وربما فهموا الذكر مجالس جذب ووثب وقفز، ثم قلوبهم بعد ذلك بعيدة عن استشعار جلال الله، وإدراك هيبته، وقدره حق قدره.

إن ذكر الله تعالى يجب أن يأخذ صوراً كثيرة لمناسبة الأحوال التي يكون الناس بإزائها، فمثلاً أمام من يرفضون الاعتراف بالخالق، ويكرهون الإيمان به نقول لهم: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الزمر:٦٢، ٦٣].

أما الذين يتخذون مع الله شركاء يكون ذكر الله بتوحيده، وإفراده بالعبودية، والتوجه إليه وحده بالدعاء والرجاء: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٤-٦٦].

ولهذا فنحن نشرح الذكر على نحو يتفق مع كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم .

إن ذكر الله تعالى أشرف ما يخطر بالبال، وأشرف ما يمر بالفم، وأشرف ما يتألق به العقل الواعي، وأشرف ما يستقر في العقل الباطن.

والذكر له معانٍ نحب أن نضرب لها أمثلة، ونسوق لها نماذج حتى تُعرف:

الناس قد يقلقون للمستقبل، أو قد يشعرون بالعجز أمام ضوائق أحاطت بهم، ونوائب نزلت بساحتهم، وهم أضعف من أن يدفعوها .. إنهم إذا كانوا مؤمنين تذكروا أن الله على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء بصير، وأنه غالب على أمره، وأن شيئاً لن يُفلت من يده .. ولذلك يشعرون بالطمأنينة .. وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد:٢٨، ٢٩].

فذكر الله هنا يُشعر الإنسان بالسكينة النفسية .. لأنه يعلم أنه في جوار لا يُضام، وأنه إذا أوى إلى الله فإنما يأوي إلى ركن شديد، ولذلك يشعر بالطمأنينة .. وهذا نوع من الذكر!!.

وعندما ينطلق ناسٌ صوب الدنيا يعبدونها، يتشهون ملذاتها، ويربطون حاضرهم ومستقبلهم بها .. فذكر الله هنا: أن يستعفف الإنسان، وأن يشعر بأن مع اليوم غداً، وأن مع الدنيا آخرة، وأن الإنسان يجب أن يُقسِّم مشاعره بين حاضره ومستقبله، فيعمل لمعاشه كما يعمل لمعاده .. وهذا معنى قول الله جل شأنه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم:٢٩، ٣٠].

وذكر الله يُخامر قلب المؤمن عندما يزله الشيطان إلى ذنب يرتكبه في جنب الله .. إنه لا يبقى في وهدته التي انزلق إليها، إنه لا يبقى في سقطته التي جرّه الشيطان عندها، إنه يذكر أن له رباً يغفر الذنب، ويقبل التوب .. ولذلك فهو ينهض من كبوته، ويطهر نفسه، ويعود إلى ربه، ويستأنف الطريق إليه، كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُون﴾ [آل عمران:١٣٥].

والفارق بين مؤمن يذنب وفاسق يذنب أن المؤمن سرعان ما يعودُ ومض الإيمان إلى ضميره إذا استطاع الشيطان أن يكسف نوره بشيء من الظلمة، أو بنفث من الدخان.

أما الفاسق فإنه يبقى على ظلمته ما يرى فيها بصيص نور، فيبقى على نجاسته ما يعرف طريق التطهر .. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۞ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١، ٢٠٢].

يجيء ذكر الله مثلاً في موقف المرء من المال .. إن المال صنو الروح، والإنسان يعشقه ويحب جمعه وإدخاره .. ولكن الله يطلب إلى الإنسان أن ينفقه، وأن يرعى فيه غيره، كما يرعى فيه نفسه .. عندئذ يحاول الشيطان أن يغُل يديه عن النفقة، وأن يملأ فؤاده خشية المستقبل، وأن يغريه بالكزازة والشح .. ولكن ذكر الله يفك قيود البخل، ويغري المرء بالنفقة، كما قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۞وَأَنفِقُواْ من مَّا رَزَقْنَـٰكُمْ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:٩، ١٠].

ويقول: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَاء وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مّنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

ذكر الله يجيء للأفراد وللأمم، وهي على طريق الكفاح والجهاد .. يجيء للفرد عندما يقال له: ما الذي يعرضك للجهاد؟ تفقد فيه مالك، وقد تفقد فيه روحك، ولو أنك قعدت في أهلك وولدك لكان ذلك أطول لعمرك، وأضمن لنجاتك .. هنا يجيء الذكر مُعلماً للإنسان أن التعرض للحُتوف لا يُقرّب أجلاً، ولا ينقص عمراً، وأن القعود في البيوت الآمنة أو التحصن في البروج المشيدة لا يدفع موتاً .. ذكر الله يجيء هنا عن طريق تعليم الإنسان الثبات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥].

وقد يجيء للأمم عندما تكون في طريق الكفاح، وهي تواجه عدواً صُلب العود، قوي العدد، كثير البطش، فتشعر بالخوف .. ولكن إذا سيطر الإيمان فإن المؤمن ينظر إلى تاريخه الذي مضى ثم يعلم أن الله هو الذي يسوق النصر وحده، وأنه ساق النصر للمسلمين في أيام عصيبة بلغ الهرج فيها أن كان المسلمون يختنقون من الضيق والضياع!!.

﴿يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب:٩].

ذكر الله تعالى يجيء للإنسان في أوقات فراغه .. وما أكثر أوقات الفراغ التي يخلو الإنسان فيها بنفسه .. وقد يسرح فكره على غير طائل، ويضرب في ميادين الوهم على غير هدى ... ولكنه إذا أحسن استغلال هذه الفترات فذكر من خلقه؟ من رزقه؟ من علّمه؟ من ربّاه؟ من ستره؟ من أكرمه؟ من كساه؟ من آواه؟ إذ ذكر ربه، وأحسّ نعمته، واعتبر، ورقّ قلبه، ودمعت عينه .. فإنه يغفر له .. فإن من بين من يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: ((رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)).

ومن نماذج ذكر الله أن تكون وحدك، قديراً على ارتكاب أية رذيلة، ولكنك تشعر برقابة الله عليك، ويتحرك قلبك في جنبك ليعصمك من الزلل .. هذا ذكر الله!!.

إن ذكر الله عز وجل معنى كبير .. إنه يجيء ضداً للنسيان .. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَـٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

إنه يجيء ضداً للغفلة .. قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَـٰبُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞مَا يَأْتِيهِمْ مّن ذِكْرٍ مّن رَّبّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١، ٢]. في محاربة الغفلة .. وما أكثر الغفلات، في محاربة النسيان .. وما أكثر ما يغشى عقل الإنسان من أسباب النسيان .. يجيء ذكر الله شعوراً معنوياً قبل أن يكون حركة شفتين .. يجيء هذا الذكر تحريكاً لأقفال القلب حتى تنفتح، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوّ وَٱلاْصَالِ وَلاَ تَكُنْ مّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

تضرعاً وخيفة .. تذللاً وخوفاً من الله .. هذا هو الذكر الذي حوّله المسلمون إلى مجالس عبث، وإلى صيحات منكرة وإلى نوع من المجون والعبث، يساق فيه قول الله عز وجل: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠].

ونحن مكلفون أن نذكر الله كثيراً .. لماذا؟ لأن الإنسان في هذه الدنيا تشغله مطالب نفسه، ومطالب أهله وولده، تشغله مظاهر الحس والحركة حوله، تستحوذ على انتباهه مظاهر الدنيا في فجاجها التي لا نهاية لها .. فلا بد أن يُقاوم هذا كله .. وهذه المقاومة إنما تكون بالذكر .. والذكر هُنا: يعني محاربة النسيان .. يعني محاربة الغفلة ..

خذ مثلاً: الواحد منا قد يغتر، قد ينتفخ، قد يشعر بشيء من القوة .. فإذا ذكر الله بالكلمات المأثورة كان هذا الذكر دواء له .. وما الكلمات المأثورة هنا؟ ((لا حول ولا قوة إلا بالله))

أي ليس لك حولٌ من ذاتك .. أنت صفر!!

بقواك الخاصة .. أنت تافه!!

ولكن مع عون الله عز وجل .. أنت شيء كثير!!

وهذا معنى قول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله)).

وهذا معنى كلمة ابن عطاء الله في حكمه: "ما تيسر طلب أنت طالبه بنفسك، وما تعسر طلب أنت طالبه بربك"!!.

هذا ذكر .. وإنما خذل ناس كثير من العرب والمسلمين لأنهم مع تفاهتهم ظنوا أنفسهم شيئاً!! بينما كان العمالقة قبلهم مع قوتهم يرون أنفسهم صفرا!! فكانت النتيجة أن وضع الله يده بالبركة واليُمن على من لاذوا به فنجحوا وانتصروا!! وسحب رضوانه وتأييده وكنفه عمَّن اعتز بنفسه فتركه مكشوف السوأة عُريان العورة!!.

إن الذكر معنى كبير ... وليس له هذا المفهوم الضيق الذي يشيع بين الناس ... لذكر الله معان شتى، ووسائل شتى، وكما يحتاج الجسم الإنساني إلى وجبات يتغذى بها صباحاً وظهراً ومساء حتى يحتفظ بالحرارة، ويتمكن من العمل والإنتاج .. فكذلك قلب الإنسان وهو مستودع إيمانه يحتاج إلى وجبات روحية من ذكر منتظم يعرف بها المرء به، ويؤدي حقه، ويزوَّد بها القلب الإنساني بالطاقة الروحية التي تجعله يتحرك على هدى، ولا يعمى في ضوضاء الحياة ولُججها الطويلة العريضة. ولا شك أن أول هذه الوجبات هي الصلاة .. فإن الله عز وجل إنما شرع الصلوات ليذكره الناس. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤].

والناس عندما يقرؤون أم الكتاب فإنما يُناجون ربهم، يشكرون نعمته، ويحمدونه على أفضاله، ويعاهدونه أن يبقوا عبيداً له مستعينين به، ثم يستلهمون منه أن يهديهم، ويحنون أصلابهم ركعاً وسجوداً ليذكروا الله باسمه العظيم والأعلى حتى يتعلموا في زحام الحياة أن العظيم هو الله، وأن الأعلى هو الله، وأن الخلائق صغرت أو كبرت ليست شيئاً !! فالله هو العظيم، والله هو الأعلى، ثم يجلسون ليحيوا ربهم: التحيات لله!!.

هذه هي الصلوات .. وأثرها ليس تربية فردية فقط .. ولكن الصلاة عصمة اجتماعية .. فهي للشعوب ضمان أن لا تفتك بها الشهوات، وأن لا تستشرى بها العلل.. ولذلك فإن الأجيال المنحطة هي التي تنصرف عن الصلاة .. لأن الشيطان يومئذ يستهلك أوقاتها في الضياع والشتات ... قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَـوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم:٥٩].

وعندما أبصر في شوارع القاهرة غلماناً نمت أجسادهم، وشمرت أفئدتهم وقلوبهم وعقولهم يلهثون وراء الوهم وينطلقون لا يحدوهم هدف رفيع، ولا غرض شريف. أنظر إليهم فأقول: ما ربَّتهم الصلوات، ما تعلموا أن يصفّوا أقدامهم بين يدي الله، إنهم بهذا المظهر والمخبر ما يصلحون لشيء، حسبنا الله على من رباكم بهذه المثابة من الحكام الشيوعيين، ومن الآباء المفرطين الكسالى المضيعين!!.

إن الصلوات ما أضاعها وما صرف الناس عنها إلا من يريدون لأمتنا أن تكون علفاً لمدافع بني إسرائيل!! ولو أنهم علّموا الأمم كيف تصطف في الصلاة، وتُناجي ربها، ما استطاعت أمة أن تفر في ميدان، ولا أن تخذل راية الإسلام في معركة!! وكذلك القرآن إنه طريق للذكر . ... وهل نزل إلا للذكر!! إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ويقول سبحانه: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

يبدو أن على القلوب أقفالاً كثيرة !! فإن أعداء العرب، أعداء المسلمين، يذيعون القرآن من محطات الإذاعة .. لأنهم واثقون من أن المسلمين لا يفهمون، ولا يتدبرون، ولا ينفذون أمراً ولا يقيمون حداً .. وهم واثقون من أن القرآن يُذاع لتضطرب به أمواج الهواء وكفى!!.

لذلك تُذيع (تل أبيب) القرآن، وتذيع (لندن) القرآن!! وهي تدري أن المسلمين يهزون رؤوسهم، أو يتمتمون بألسنتهم، ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد!! وما نزل القرآن لهذا .. إن القرآن نزل فأحيا أمة ميتة، وخلق من العرب ـــ وكانوا شعباً لا قيمة له في دنيا الناس ـــ خلق منهم شعباً ورَّث العالمين

أضخم حضارة عرفتها الدنيا، وجُهدنا الآن أن نصل الناس بالقرآن .. لا بالسماع الميت، ولا بالخشوع المصطنع .. ولكن بالعمل .. بإحياء أحكامه، بالاستجابة إلى ما أودع الله فيه من ينابيع دفاقة بالخير والحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

لذكر الله تعالى بغير شك معانٍ كثيرةٍ .. وقد رأيت أن أشرح هذه المعاني .. ولكن لا يمنع هذا من أن إسلامنا العظيم زوّد الأتباع بصيغٍ للذكر، هي صيغ، قال العلماء: يُستحب أن تردد، لكن ما يُستحب ترداده من صيغ شيء غير ما وجب استشعاره من ذكر الله.

إننا نختم الصلاة بالتكبير والتسبيح والتحميد .. ترديد الكلمات مستحب .. لكن الشعور بأن الله الأكبر، وأن الحمد لله، وأنه مُنزه عن الضد، والند، والكفؤ، والزوجة والصاحبة .. تنزيهه عن هذا كله ركن .. وإذا أضعنا الركن ورددنا صيغاً لا نفهمها فلا قيمة لهذا الترديد .. نريد إحياء الفريضة أولاً .. أما الصيغ فكثيرة.

وللعلماء كلام أثبتوا فيه من معاني الذكر، ومن صوره، ومن صيغه ما يهز القلوب، ويشرح الصدور، ويفعم النفوس نوراً وتُقى .. ومعروف في تاريخ النبي عليه الصلاة والسلام، ويعرف هذا الأصدقاء والأعداء، إن أحداً من الأولين والآخرين لم يتقن فنَّ ذكر الله كما أتقنه محمد عليه الصلاة والسلام .. لقد كان ذكر الله تعالى في قلبه وعلى لسانه يأخذ صوراً بلغت ــ لا أقصد الإعجاز البياني في شرف صياغتها، ونقاء أسلوبها، وجمال جُملها ــ ولكن ما تضمنته من حب لله، وحرارة في مناجاته، وإقبال عليه، ودوام على صحبته.

إن الصيغ التي وردت في هذا كثيرة إلى حد يحتاج إلى عرض خاص .. منها أن النبي صلي الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال: ((اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت).

وكان إذا استيقظ من نومه قال: ((الحمد لله الذي عافاني في جسدي، ورد علي روحي، وأذِن لي بذكره)) .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً قال: ((الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)).

وكان إذا انتهى من طعامه قال: ((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين)).

وكان إذا خرج من الخلاء قال: ((غفرانك)) ويقول: ((الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني)) .

وكان إذا بدأ سفراً قال: ((اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا بُنصحك، واقلبنا بذمتك، اللهم ازوِ لنا الأرض، وهوّن علينا السفر، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب)).

وكان إذا عاد من سفر أو غزوٍ قال: ((آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون)).

وكان إذا رأى الهلال قال: ((اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلام والإسلام، ربي وربك الله)) .

وكان فنٌّ الدعاء على لسانه غريباً .. كان يقول: ((اللهم اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّاباً، لك مطيعاً، إليك مُخبتاً، إليك أوّاها منيبا)) .

وأدعيته ﷺ وأذكاره في هذا كثيرة .. نفعنا الله بصاحب الرسالة ﷺ وبما نزل عليه من كتاب جليل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔـاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:٢٥، ٢٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين.

وأشهد أن محمداً رسول الله إمام الأنبياء وسيد المصلحين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، واعلموا أيها الإخوة أننا مكلفون أن نذكر ربنا كثيراً في هذه الأيام .. أقصد بذلك: الذكر بالمعنى الذي شرحته .. ذلك أن (مصر) كان يجرها إلى الكفر بالله وترك دينه ناس كثيرون ميدان الحُكم وفي ميدان القلم .. كانت مراكز القوة تقود بلدنا إلى الشيوعية بيقين .. وقد جرّتنا مراحل طويلة في هذا الطريق .. ونحن لا نريد أن نكفر بالله، ولا نريد أن ننسى وجوده، ولا أن نجحد حقه في سيرتنا، وفي سلوكنا، وفي أعمالنا .. وهناك طلاب كثيرون الآن حريصون على أن تبقى (مصر) مؤمنة، وعلى أن يختفي كل أثر للمدِّ الشيوعي في بلادنا .. ونحن بقلوبنا ودعواتنا نريد فعلاً أن يختفي من نفوسنا ومن صفوفنا كل تهوين للعلاقة بالله، وكل إساءة إلى دين الله، وكل تفريط في جنب الله .. نريد أن تعود مرة أخرى إلى النفوس خشيتها من الله، وانتظامها في صفوف الصلاة، وإعزازها للمساجد، وتعلق القلوب بعبادة الله في ساحاتها .. نريد أن نعرف أن الإنسان لا كما يقول بعض الكتاب اليوم حيوان تاريخي!! لا .. الإنسان عبْدٌ لله في هذه الدنيا، خُلق ليؤدي حق الله، وليقوم ــ إن كان مسلماً ــ بأكمل رسالة نضَّرت وجه الإنسانية وأعلت قدرها .. وهي رسالة الإسلام.

إن الفكر المادي الوضيع يفرض نفسه عن طريق لغطٍ لا آخر له، وبغام دواب ملكت ناصية الكتابة والتوجيه.

ونريد أن يعلم الناس أن هؤلاء ومن ساندهم من أسباب السُلطة قديماً جرُّروا بلدنا في ميدان المادية، وفي منحدرات الشيوعية، حتى كانت النتيجة أن هان رُبنا علينا، هان القرآن علينا، هان دُيننا علينا، هُنَّا على أنفسنا، فسقطنا من عين الله، ومن أعين الناس في الميدان العالمي!!.

إننا لكي نسترجع ما فقدنا، ولكي نسترد خسائرنا يجب أن نذكر الله .. ومعنى الذكر هنا أن نُنعش تعاليم الإسلام بردِّ الحياة إليها بعد أن كادت تموت، وأن نعيد للإيمان نضارته وقوته بعد أن كاد يذبُل ويذوي ويضعف ويتلاشى.

إذا كنا قد جُررنا في طريق المادية والشيوعية، ومشينا طوعاً أو كرهاً خُطوات في هذا الطريق فينبغي أن نعود أدراجنا إلى كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام .. الموت أفضل من أن نعيش وقد انقطعت صلتنا بمحمد ﷺ وكتابه .. الموت أفضل من هذا الضياع والشتات.

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر)).

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

عباد الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، وأقم الصلاة

انتهت خطبة الشيخ ويسرنا إيراد هذا التعليق

قل دائماً يا سامعا لكل شكوى

يا خالق الأكوان أنت المرتجى.... وإليك وحدك ترتقي صلواتي
يا خالقي ماذا أقول وأنت تعلمـــــــني وتعلم حاجتي وشكاتــــــي
يا خالقي ماذا أقول وأنت........ مطلع على شكواي والأناتي

اللهم يا موضع كل شكوى، ويا سمع كل نجوى، ويا شاهد كل بلوى، يا عالم كل خفيـــة، و يـــا كاشف كل بلية، يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين ندعوك دعاء من أشدت فاقته، وضعفت قوته، وقلت حيلته دعاء الغرباء المضطرين الذين لا يجدون لكشف ما هم فيه إلا أنت.

يا أرحم الراحمين أكشف ما بنا وبالمسلمين من ضعف وفتور وذل وهوان.

يا سامعا لكل شكوى أعن المساكين والمستضعفين وأرحم النساء الثكالى والأطفال اليتامى وذي الشيبة الكبير، إنك على كل شيء قدير.

معاشر الأخوة والأخوات:

إن في تقلب الدهر عجائب، وفي تغير الأحوال مواعظ، توالت العقبات، وتكاثرت النكبات، وطغت الماديات على كثير من الخلق فتنكروا لربهم ووهنت صلتهم به.

اعتمدوا على الأسباب المادية البحتة، فسادة موجات القلق والاضطراب، والضعف والهوان، وعم الهلع والخوف من المستقبل، خافوا على المستقبل، تخلوا عن ربهم فتخلى الله عنهم:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

جميعُ الخلق مفتقرون إلى الله، مفتقرون إلى الله في كل شؤونِهم وأحوالِهم، وفي كلِ كبيرةٍ وصغيره، وفي هذا العصرُ تعلقَ الناسُ بالناسِ، وشكا الناسُ إلى الناس، ولا بئسَ أن يُستعانُ بالناس في ما يقدرون عليه، لكن أن يكونَ المُعتمَدُ عليهم، والسؤال إليهم، والتعلقُ بهم فهذا هو الهلاكُ بعينه، فإن من تعلق بشيٍ وكلَ إليه.

نعتمدُ على أنفسِنا وذكائنا بكل غرورٍ وعجب وصلف، أما أن نسأل اللهَ العونَ والتوفيق، ونلحَ عليه بالدعاء، ونحرِصِ على دوام الصلة باللهِ في كلِ الأشياء، وفي الشدةِ والرخاء، فهذا أخرُ ما يفكرُ بـــه بعض الناس.

فقيراً جئتُ بابك يا إلهي.........ولستُ إلى عبادك بالفقيرِ
غنياً عنهمُ بيقينِ قلبي........وأطمعُ منك في لفضلِ الكبيرِ
الهي ما سألتُ سواك عونا.....فحسبي العونُ من ربٍ قديرِ
الهي ما سألتُ سواك عفوا.....فحسبي العفوُ من ربٍ غفورِ
الهي ما سألتُ سواك هديا.....فحسبي الهديُ من ربٍ بصيرِ
إذا لم أستعن بك يا الهي.........فمن عونِي سواك ومن مجيرِ

إن الفرار إلى الله، واللجوء إليه في كلِ حالٍ وفي كل كربٍ وهم، هو السبيلُ للتخلصَ من ضعفنا وفتورنا وذلنا و هواننا.

إن في هذه الدنيا مصائبَ ورزايا، ومحناً وبلايا، آلامُ تضيقُ بها النفوس، ومزعجاتُ تورث الخوفَ والجزع، كم في الدنيا من عينٍ باكيةٍ ؟

وكم فيها من قلب حزين؟

وكم فيها من الضعفاءِ والمعدومين، قلوبُهم تشتعل، ودموعُهم تسيل ؟

هذا يشكُ علةً وسقما.

وذاك حاجةً وفقرا.

وآخر هماً وقلقا.

عزيزٌ قد ذل، وغنيٌ افتقر، وصحيحٌ مرض، رجل يتبرم من زوجه وولده، وآخرُ يشكُ ويئنُ من ظلمِ سيده.

وثالثٌ كسدة وبارت تجارته، شاب أو فتاة يبحث عن عروس، وطالب يشكو كثرة الامتحانات والدروس.

هذا مسحور وذاك مدين ،وأخر ابتليَ بالإدمان والتدخين، ورابعُ أصابه الخوفُ ووسوسةُ الشياطين.

تلك هي الدنيا، تضحكُ وتبكي، وتجمعُ وتشتت، شدةُ ورخاءُ وسراءٌ وضراءُ.

وصدق الله العظيم:

(لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

أيها الأخوة،

السؤال الذي يجب أن يكون، هؤلاء إلى من يشكون، و أيديَهم إلى من يمدون؟

يجيبك واقعُ الحال على بشرٍ مثلُهم يترددون، وللعبيدِ يتملقون، يسألون ويلحون وفي المديح والثنـــاء يتقلبون، وربما على السحرة والكهنة يتهافتون.

نعم والله تألمنا شكاوي المستضعفين، وزفراتُ المساكين، وصرخاتُ المنكوبين، وتدمعُ أعُيَننا – يعلـــم الله– لأهات المتوجعين، وأناتُ المظلومين، وانكسارِ الملذوعين، لكن أليس إلى اللهِ وحدَه المشتكي ؟

أين الإيمان بالله ؟ أين التوكلُ على الله ؟ أين الثقةُ و اليقينُ بالله ؟

وإذا عرتك بليةٌ فأصبر لها........صبرُ الكريمِ فإنه بك أرحمُ

وإذا شكوتَ إلى ابنِ أدم إنما.....تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ ألم نسمع عن أناس كانوا يشكون إلى الله حتى انقطاع سير نعلهم، نعم حتى سير النعل كانوا يسألونه الله، بل كانوا يسألون الله حـــتى الملح. يا أصحابَ الحاجات.

أيها المرضى......... أيها المدينون.

أيها المكروب والمظلوم.........أيها المُعسرُ والمهموم.

أيها الفقيرُ والمحروم.

يا من يبحث عن السعادة الزوجية.

يا من يشكو العقم ويبحث عن الذرية.

يا من يريد التوفيق بالدراسة والوظيفة.

يا من يهتم لأمر المسلمين.

يا كلُ محتاج، يا من ضاقت عليه الأرضُ بما رحبت.

لماذا لا نشكوُ إلى اللهِ أمرنا وهو القائل:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ).

لماذا لا نرفعُ أكفَ الضراعة إلى الله وهو القائل:

(فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).

لماذا ضُعفُ الصلة بالله، وقلةُ الاعتماد على الله، وهو القائل:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ). لولا دعاؤكم.

أيها المؤمنون، أيها المسلمون يا أصحابَ الحاجات، ألم نقرأ في القرآنِ قول الحق عز وجل: (فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) لماذا ؟ (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ).

فأين نحن من الشكوى لله، أين نحن من الإلحاح والتضرعِ الله؟

سبحان الله، ألسنا بحاجةٍ إلى ربنا؟

أنعتمدُ على قوتنا وحولِنا، والله ثم واللهِ لا حول لنا ولا قوةَ إلا بالله. .. واللهِ لا شفاء إلا بيد الله، ولا كاشفَ للبلوى إلا الله، لا توفيق ولا فلاح ولا سعادةَ ولا نجاح إلا من الله.

العجيبُ والغريب أيها الأخوةُ أن كلَ مسلمٍ يعلمُ ذلك، ويعترفُ بهذا بل ويقسمُ على هذا، فلماذا إذاً تتعلقُ القلوبُ بالضعفاءُ العاجزين ؟

ولماذا نشكو إلى الناسِ ونلجأً للمخلوقين ؟

سل الله ربك ما عنده........ ولا تسأل الناس ما عندهم

ولا تبتغي من سواه الغنى..... وكن عبده لا تكن عبدهم

فمن يا إذا بُليت سلاك أحبابك، وهجرك أصحابك.

يا من نزلت بها نازلة، أو حلت به كارثة.

يا من بليت بمصيبةٍ أو بلاءٍ، ارفع يديك إلى السماء وأكثر الدمعَ والبكاء، وألَحَ على اللهِ بالدعاء وقل: يا سامعاً لكلِ شكوى.

إذا استعنت فأستعن بالله، وإذا سألت فأسأل الله، وقل يا سامعاً لكل شكوى.

توكل على الله وحده، وأعلن بصدقٍ أنك عبده واسجد لله بخشوع، وردد بصوتٍ مسموع: يا سامعاً لكلِ شكوى.

أنت الملاذُ إذا ما أزمةٌ شملت.. وأنت ملجأُ من ضاقت بهِ الحيلُ

أنتَ المنادى به في كلِ حادثةٍ....أنت الإلهُ وأنت الذخرُ والأملُ

أنت الرجاءُ لمن سُدت مذاهبهُ..أنت الدليلُ لمن ضلت بهِ السبلُ

إنا قصدناك والآمال واقعةٌ.....عليكَ والكلُ ملهوفُ ومبتهلُ

إن الأنبياء والرسلَ، وهم خيرُ الخلق، وأحبُ الناسَ إلى الله، نزل بهم البلاء واشتدَ بهم الكرب، فماذا فعلوا وإلى من لجئوا.

أخي الحبيب، أختصرُ لك الإجابة، إنه التضرعُ والدعاء، والافتقارُ لربِ الأرضِ والسماء، إنها الشكايةُ لله وحُسنُ الصلة بالله.

هذا نوحٌ υ يشكو أمرَه إلى الله ويلجأُ لمولاه:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

كانتِ المناداة، كانتِ المناجاة، فكانتِ الإجابةُ من الرحمن الرحيم.

وقال تعالى:

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال عز من قائل:

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ).

هذا أيوبُ υ ، ابتلاهُ اللهُ بالمرضِ ثمانيةَ عشر عاماً حتى أن الناسُ ملوا زيارته لطولِ المدة، فلم يبقى معه إلا رجلان من إخوانه يزورانه، لكنه لم ييئس υ ، بل صبرَ واحتسب، وأثنى الله عليه: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)، أواب أي رجاعٌ منيبٌ إلى ربه، ظل على صلته بربه وثقته به، ورضاهُ بما قُسم الله له، توجه إلى ربه بالشكوى ليرفع عنه الضراء والبلوى قال تعالى:(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ). فماذا كانتَ النتيجة ؟

قال الحقُ عز وجل ، العليمُ البصيرُ بعباده، الرحمنُ الرحيم قالَ: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).

هذا يونسُ صلى الله عليه وسلم، رفع الشكاية لله فلم ينادي و لم يناجي إلا الله قال تعالى:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ). فماذا كانتَ النتيجة ؟

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ).

وزكريا υ قال الحق عز وجل عنه: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ). ماذا كانت النتيجة ؟

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ). الذين يشكون العقم وقلة الولد.

إذا لماذا استجاب الله دعاه؟

لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، وكانوا لا يملون الدعاء، بل كان القلب متصل متعلق بالله، لذلك قال الله عنهم: (وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

خاشعين متذللين، معترفين بالتقصير، فالشكاية تخرج من القلب قبل اللسان.

يعقوبُ عليه السلام قال: (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)، انظروا لليقين، انظروا للمعرفة برب العالمين: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)، فاستجاب اللهُ دعائه وشكواه وردَ عليه يوسفَ وأخاه.

وهذا يوسف u ابتلاه الله بكيد النساء، فلجأ إلى الله، وشكى إليه ودعاه فقال:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، إنه التضرع والدعاء، والافتقار لـــرب الأرض والسماء، إنها الشكاية لله، وحسن الصلة بالله.

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

وأخبر الله عن نبينا محمد صلي الله عليه وسلم وأصحابه فقال تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْـتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ). استغاثة لجاءة إلى الله، شكوى وصلة بـــالله ســبحانه وتعالى.

وهكذا أيها الأحبة حينما نستعرضُ حياةَ الرسلِ جميعاً، كما قصها علينا القرآن الكريم، نرى أن الابتلاء والامتحان كان مادتُها ومائُها، وأن الصبرَ وحسنُ الصلةِ بالله ودوام الالتجاءِ وكثرةُ الدعاءِ وحـــلاوة الشكوى كان قوَمُها.

وما أشرنا إليه إنما هي نماذج من الاستجابة للدعاء، ومن في كتب السير والتفاسير وقف على شـــدةِ البلاء الذي أصاب الأنبياء، وعلم أن الاستجابةَ جاءت بعد إلحاحٍ ودعاء، واستغاثةٍ ونداء.

إنها آياتُ بينات وبراهينُ واضحات، تقول بل وتعلن أن من توكلَ واعتمد على الله، وأحسن الـــصلة بمولاه استجاب الله دعاه، وحفظه ورعاه، فإن لم يكن ذلك في الدنيا كان في الآخرة: (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ).

أنها صفحاتٌ من الابتلاء والصبر معروضةٌ للبشرية، لتسجل أن لا اعتماد إلا على الله، وان لا فـــارجَ للهمِ ولا كاشفَ للبلوى إلا الله.

هذا هو طريق الاستعلاء أن تنظرَ إلى السماء، وأن نلحُ بالدعاء، لأن الشكوى إلى الله تشعرك بالقوةِ والسعادة، وأنك تأوي إلى ركنٍ شديد.

أما الشكوى إلى الناس، والنظرِ إلى ما في أيدي الناس فيشعرك بالضعف والذل والإهانةِ والتبعية.

يا أهل التوحيد، أليس هذا أصل من أصول التوحيد ؟

إن من أصول التوحيد أن تتعلق القلوبُ بخالقها في وقت الشدةِ والرخاء والخوفِ والأمن، والمـــرضِ والصحة، وفي كل حالٍ وزمان.

وما نراه اليومَ من تعلقِ القلوب بالمخلوقين، وبالأسباب وحدها دون اللجوء إلى الله، لهو نذيرُ خطـــرٍ يزعزعُ عقيدةَ التوحيدِ في النفوس.

أيها الأحبة: إن الشكوى لله، والتضرعَ إلى الله، وإظهارَ الحاجة إليه، ولاعتراف بالافتقار إليه من أعظمِ عرى الإيمانِ وثوابتِ التوحيد، وبرهانُ ذلك الدعاء والإلحاح بالسؤال، والثقةُ واليقينُ بــالله في كــلِ حال.

ولقد زخرت كتبُ السنةِ بأنواعٍ من الدعاءِ تجعلُ المسلمَ على صلةٍ بربه، وفي حرزٍ من عدوه، يقضي أمره ويكفي همه.

في كلِ مناسبةٍ دعا، في اليقظةِ والمنام، والحركة والسكون، قياماً وقعودا، وعلى الجنــوب، ابتــهالٌ وتضرعٌ في كل ما أهم العبد، وهل إلى غيرِ الله مفر، أم هل إلى غيره ملاذ.

ففي المرض مثلا الأحاديث كثيرة، والأدعية مستفيضة، إليك على سبيل المثال ما أحرجــه البخــاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها:

أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه المعوذات، وينفث، فلما أشــتد وجعه كنت اقرأ عليه وأمسح عليه رجاء بركتها.

وأخرج البخاري ومسلم أيضا من حديث عائشة قالت:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: أذهب البــأس رب الناس، وأشفي أنت الشافي لا شفاء إلا شفائك، شفاء لا يغادر سقما، أي لا يترك سقما.

وفي صحيح مسلم عن عثمان أبن أبي العاص صلي الله عليه وسلم :

أنه شكى إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم، فقال صلي الله عليــه وسلم : ضع يدك على الذي تألم من جسدك.

انظروا لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، قدوتنا وحبيبنا يربي الناس، ويربي أصحابه على الاعتمــاد واللجوء إلى الله، ضع يدك، الإرشاد أولا لله، التعلق أولا بالله، لم يرشده أولا لطبيب حاذق ولا بأس بهذا، لكن التعلق بالله يأتي أولا.

ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل بسم الله، بسم الله ثم يقول سبعا أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر.

وفي رواية أمسحه بيمينك سبع مرات، وفي رواية قال عثمان فقلت ذلك فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر بها أهلي وغيرهم.

سبحان الله، اسمعوا لحسن الصلة بالله، والتوكل على الله، فلم أزل آمر بها أهلي وغيرهم.

أيها المريض، أعلم أن من أعظم أسباب الشفاء التداوي بالرقى الشرعية من القرآن والأدعية النبويــة، ولها أثر عجيب في شفاء المريض وزوال علته، لكنها تريد قلبا صادقا وذلا وخضوعا لله.

رددها أنت بلسانك، فرقيتك لنفسك أفضل وأنجح، فأنت المريض وأنت صاحب الحاجة، وأنت المضطر، وليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة، وما حك جلدك مثل ظفرك، فتوكل على الله بصدق وألح عليه بدون ملل، وأظهر ضعفك وعجزك، وحالك وفقرك إليه، وستجد النتيجة العجيبة إن شاء الله ثقة بالله.

فإلى كل مريض مهما كان مرضه أقول:

شفاك الله وعافاك، اعلم أن الأمراض من جملة ما يبتلي الله به عباده، والله عز وجل لا يقضي شيئا إلا وفيه الخير والرحمة لعباده، وربما كان مرضك لحكمة خفيت عليك، أو خفيت على عقلك البشري الضعيف، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

أيها الحبيب شفاك الله، هل علمت أن للأمراض والأسقام فوائد وحكم أشار أبن القيم إلى أنه أحصاها فزادت على مائة فائدة (انظر كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل صفحة ٥٢٥).

أيها المسلم أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك وأن يعافيك، هل سمعت قول رسول الله صلي الله عليه وسلم : ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها.

وهل سمعت أنها صلي الله عليه وسلم : زار أم العلاء وهي مريضة فقال الله ابشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة.

قال أبن عبد البر رحمه الله: الذنوب تكفرها المصائب والآلام، والأمراض والأسقام، وهذا أمر مجتمع عليه.

والأحاديث والآثار في هذا مشهورة ليس هذا مقام بسطها، لكن المراد هنا أننا نرى حال بعض الناس إذا مرض فهو يفعل كل الأسباب المادية من ذهاب للأطباء وأخذ للدواء وبذل للأموال وسفر للقريب والبعيد، ولا شك أن هذا مشروع محمود، ولكن الأمر الغريب أن يطرق كل الأبواب وينسى باب مسبب الأسباب، بل ربما لجأ للسحرة والمشعوذين، نعوذ بالله من حال الشرك والمشركين.

ألم يقرأ هذا وأمثاله في القرآن:(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ).

أيها المريض أعلم أن الشافي هو الله، ولا شفاء إلا شفائه.

أيها المريض، بل يا كل مصاب أيا كانت مصيبته، هل سألت نفسك لماذا ابتلاك الله بهذا المرض، أو بهذه المصيبة ؟ ربما لخير كثير ولحكم لا تعلمها ولكن الله يعلمها،ألم يخطر ببالك أنه أصابك بهذا البلاء

ليسمع صوتك وأنت تدعوه، ويرى فقرك وأنت ترجوه، فمن فوائد المصائب استخراج مكنون عبودية الدعاء.

قال أحدهم: سبحان من استخرج الدعاء بالبلاء.

وفي الأثر أن الله ابتلى عبدا صالحا من عباده وقال لملائكته لأسمع صوته.

يعني بالدعاء والإلحاح.

أيها المريض، المرض يريك فقرك وحاجتك إلى الله، وأنه لا غنى لك عنه طرفة عين، فيتعلق قلبك بالله، وتقبل عليه بعد أن كنت غافلا عنه، وصدق من قال:

فربما صحت الأجسام بالعلل.

فأرفع يديك وأسل دمع عينيك، وأظهر فقرك وعجزك، واعترف بذلك وضعفك.

في رواية عن سعيد ابن عنبسة قال: بينما رجل جالس وهو يعبث بالحصى ويحذف به إذ رجعت حصاة منه عليه فصارت في أذنه، فجهدوا بكل حيلة فلم يقدروا على إخراجها، فبقيت الحصاة في أذنه مدة وهي تألمه، فبينما هو ذات يوم جالس إذ سمع قارئ يقرأ: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ). فقال الرجل: يا رب أنت المجيب وأنا المضطر فأكشف عني ما أنا فيه، فنزلت الحصاة من أذنه في الحال.

لا تعجب، إن ربي لسميع الدعاء، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

أيها المريض، إياك وسوء الظن بالله إن طال بك المرض، فتعتقد أن الله أراد بك سوء، أو أنه لا يريد معافاتك، أو أنه ظالم لك، فإنك إن ظننت ذلك فإنك على خطر عظيم.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى يقول أنا عند ظني عبدي بي، إن ظن خيرا فله، وإن ظن شرا فله.

يعني ما كان في ظنه فإني فاعله به، فأحسن الظن بالله تجد خيرا إن شاء الله.

لا تجزعن إذا نالتك موجعة... واضرع إلى الله يسرع نحوك الفرج
ثم استعن بجميل الصبر محتسبا.... فصبح يسرك بعد العسر ينسلج
فسوف يدلج عنك الهم مرتحلا.... وإن أقام قليلا سوف يدّلج

هذا في المرض، وأطلت فيه لكثرة المرضى، وحاجة الناس إلى مثل هذه التوجيهات، وهي تحتاج إلى دروس ومحاضرات، ولكن حسبي ما ذكرته الآن لأن الموضوع عام في المصائب والآلام.

∃ ومن المصائب والآلام التي يحتاج الناس فيها إلى الشكوى إلى الله تراكم الديون وكثرة المعسرين. كم من مدين عجز عن الوفاء، وكم من معسر يعيش في شقاء، هم في الليل وذل في النهار، أحـــزان وآلام لا يغمض في منام، ولا يهنأ في طعام، طريد للغرماء، أو مع السجناء، صبية صـــغار، وبيـــت للإيجار، وزوجة مسكينة لا تدري أتطرق أبواب المحسنين أو تسلك طرق الفاسقين.

هذه رسالة مؤلمة من زوجة إلى زوجها في السجن بسبب الديون جاء فيها:

لم أتمتع معك في حياتنا الزوجية إلا فترة من الزمن حتى غيبوك في غياهب السجون، كم سنة غبت عني لا أدري ماذا فعل الله بك، ولا أدري عنك أحي فترجى أم ميت فتنعى، ليتك ترى حـــالي وحـــال أولادك، ليتك ترى حال صغارك، لست أدري هل أخون أمانة الله وأمانتك وأطلب الرزق لهـــؤلاء بطرق محرمة وأنا في ذمتك وعهدك، أم أطلب الطلاق ويضيع أولادك.. إلى أخر الرسالة من كتاب إلى الدائنين والمدينين.

وأقول أيها الأحبة، تصوروا حال هذا الزوج كيف يكون وهو يقرأ هذه الكلمات، ديون وســـجون وهموم وأولاد، ذل وخضوع للناس.

وأسمعوا لهذا الرجل وهو يشكو حاله ويقول: أنا رجل سجين علي مبلغ من المال، وصار لي في السجن أكثر من سنة ونصف، ولا يقبل خصمي كفيلا، وأنا معسر وصاحب عائلة فهل يجوز سجني؟

إلى هؤلاء وأمثالهم أقول: لماذا طرقتم الأبواب كلها ونسيتم باب من يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا خائبتين. وسنده جيد.

قال السري السبطي: كن مثل الصبي إذا اشتهى على أبويه شهوة فلم يمكناه قعد يبكي عليهما، فكن أنت مثله إذا سألت ربك و لم يعطك، فأقعد وأبكي عليه.

ولرب نازلة يضيق بها الفتى........ ذرعا وعند الله منها مخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها.. فرجت وكان يظنها لا تفرج

ومن الأدعية في قضاء الدين ما أخرجه أبو داوود في سننه من حديث أبي سعيد الخدري قال: دخـــل النبي صلي الله عليه وسلم المسجد ذات يوم فرأى فيه رجلا من الأنصار يقال له أبو أمامه، فقال له النبي صلي الله عليه وسلم إن أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة، قال هموم لزمتني، وديون يا رسول الله. قال صلي الله عليه وسلم أفلا أعلمك كلاما إذ قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك، قلت بلى يا رسول الله، قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

قال ففعلت ذلك فأذهب الله تعالى همي وغمي وقضى عني ديني.

يعلق القلوب بالله صلوات الله وسلامه عليه.

وروى البيهقي في فضائل الأعمال عن حماد ابن سلمة أن عاصما ابن أبي إسحاق شيخ القراء في زمانه قال: أصابتني خصاصة -أ ي حاجة وفاقة - فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمري فرأيت في وجهه الكراهة، فخرجت من مترله إلى الصحراء ثم وضعت وجهي على الأرض وقلت يا مسبب الأسباب، يا مفتح الأبواب، يا سمع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضل عن من سواك. يلح على الله بهذا الدعاء.

قال فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعت بقربي، فرفعت رأسي فإذا بحدأة طرحت كيسا أحمر فأخذت الكيس فإذا فيه ثمانون دينارا وجوهرا ملفوفا بقطنة، فبعت الجواهر بمال عظيم، وأبقيت الدنانير فاشتريت منها عقارا وحمدت الله تعالى على ذلك.

لا نعجب أيها الأخوة، إن ربي لسميع الدعاء، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

ومن الأدعية عند الهم والقلق ما أخرجه أحمد في المسند من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك، ابن عبدك أبن أمتك نصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضائك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزن وأبدله مكانه فرجا، وفي رواية فرحا، قال فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها، قال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها.

أيها الأخوة، إن الإنسان منا ضعيف، ضعيف فكيف إذا اجتمعت عليه الهموم والأحزان، وشواغل الدنيا ومشاكلها فزادته ضعفا، وجعلته فريسة للهم والقلق والتمزق النفسي.

انظروا للعيادات النفسية، وكثرت المراجعين لها، شباب وفتيات في أعمار الزهور، أين هؤلاء من الاعتصام بالله، والاتصال والشكوى للذي قدّر الهموم والغموم وقضى بالمصائب والأحزان.

يتصل به متذللا معترفا بذنبه طارقا بابه مستعينا به مستيقنا بأنه هو القادر على كشفها دون سواه، وما سواه إلا أسباب هو الذي يقدرها ويهيئها للعبد.

إن الله تعالى يقول: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً).

قال أبن القيم في طريق الهجرتين: فإن الإنسان ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة ضـــعيف الصبر والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويـــه ويعينـــه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

إذا فلنتعلم هذا الحديث كما أوصى صلي الله عليه وسلم فإن فيه خضوعا وخشوعا لله، فيه اعترافـــا بالعبودية والذل لله، فيه توسل واستغاثة بجميع أسماء الله ما يُعْرف منها وما لا يعرف، ما كتب ومـــا أخفى.

وأبشر أخي الحبيب فإن النبي صلي الله عليه وسلم يقول: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.

يا صاحب الهم إن الهم منفرج...... أبشر بخير فإن الفارج الله

إذا بليت فثق بالله وأرضى به... إن الذي يكشف البلوى هو الله

ومن الأدعية عند النوازل والفتن والخوف ما أخرجه أبو داوود والنسائي عن أبي موسى أن النبي صلي الله عليه وسلم كان إذا خاف قوما قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم.

وكان يقول صلي الله عليه وسلم عند لقاء العدو: اللهم أنت عضدي وأنت ناصري، بك أصول وبك أجول وبك أقاتل.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها نبينا محمد صلي الله عليه وسلم حين قال له الناس إن الناس قد جمعوا لكم.

فإذا كان المحيي والمميت والرزاق هو الله، فلماذا التعلق بغير الله؟

لماذا الخوف من الناس وصلي الله عليه وسلم يقول: واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك.

أيها المسلم، لا يمكن للقلب أبدا أن يسكن أو يرتاح أو يطمأن لغير الله، فاحفظ الله يحفظك وردد : (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

رأى موسى عليه السلام البحر أمامه والعدو خلفه فقال: (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، إنها العناية الربانية إذا ركن إليها العبد صادقا مخلصا.

نبينا محمد صلي الله عليه وسلم في الغار ويرى أقدام أعدائه على باب الغار، ويلتفت إلى صاحبه يقول: (لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، والأعجب من ذلك أنه مطارد مشرد يبشر سراقة بأنه سوف يلبس سواري كسرى، هكذا الإيمان والاعتصام بالله.

كان صلي الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، أي إذا نزل به أم أو أصابه غم لجأ إلى الله، فزع إلى الصلاة ليلجأ إلى الله، ويشكو إلى الله، ويناجي مولاه.

إنها الثقة بالله عند الشدائد، فهو يأوي إلى ركن شديد.

فيا من وقعت بشدة أرفع يديك إلى السماء، وألح على الله بالدعاء والله يعصمك من الناس.

وإن كنتَ مظلوماً فأبشر فإن النبيَ صلي الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: وأتقِ دعـــوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب.

وعن أبي هريرة τ قال، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه.

ألا قولوا لشخص قد تقوى.......على ضعفي و لم يخشى رقيبه

خبأت له سهاما في الليالي........ وأرجو أن تكون له مصيبة

أيها الأخوة والأخوات، إن من أعظم البلايا وأشد الرزايا ما يصيب المسلمين في كل مكان من غزو واجتياح وتعديات ومظالم وفقر وتجويع حتى أصاب بعض النفوس الضعيفة اليأس والقنوط والإحباط وفقدان الثقة والأمل.

لماذا أيها الأخوة ؟ أليس الأمر لله من قبل ومن بعد، أليس حسبنا الله وكفى بالله حسيبا، ألـــيس الله بقادر، أليس هو الناصر وكفى بالله نصيرا، ألا يعلم الله مكرهم، ألم يقل:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

أليس الله بكافي عبده: (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

ألم يقل: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ).

ألم يقل: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

معاشر الأخوة اسمعوا وعوا، وأعلموا وأعلنوا، إن مصيبتنا ليست بقوة عدونا، إنما هي بضعف صـــلتنا بربنا، وضعف ثقتنا وقلة اعتمادنا عليه، لنفتش في أنفسنا عند وقوعنا في الشدائد والمحن، أين الضراعة

والشكوى لله، أين اللجاءة والمنجاة لله؟ ليس شيء أفضل عند الله من الدعاء لأن فيه إظهـار الفقـر والعجز، والتذلل والاعتراف بقوة الله وقدرته وغناه.

أيها المسلمون، نريد أن تعلم فن الدعاء والتذلل والخضوع والبكاء، لنعترف بالفقر إليه، ولنظهر العجز والضعف بين يديه، أليس لنا في رسول الله قدوة، أليس لنا فيه أسوة، أوذي أشد الأذى، وكذّب أشد التكذيب، أُتهم بعرضه وخدشت كرامته، وطرد من بلده، عاشا يتيما وافتقر، ومن شدة الجوع ربـط على بطنه الحجر، قيل عنه كذابٌ وساحر، ومجنونٌ وشاعر، توضعُ العراقيلُ في طريقه، وسلى الجزورِ على ظهره، يشجُ رأسُه، وتكسرُ رباعيتُه، يقتلُ عمه، جمعوا عليه الأحزابَ وحاصـروه، المـشركون والمنافقون واليهود.

يذهبُ إلى الطائفِ يبلغُ دعوتَه فيقابلَ بالتكذيبِ والسبِ والشتمِ، ويطُردَ ويلاحقَ ويرمى بالحجـارةِ فماذا فعل -بأبي هوَ وأمي- صلي الله عليه وسلم ؟

أين ذهب، من يسأل، على من يشكو، إلى ذي الجبروتِ والملكوتِ، إلى القوي العزيز، فأعلن صلي الله عليه وسلم الشكوى، ورفعَ يديه بالنجوى، دعاء وألَحَ وبكاء، وتظلمَ وتألَمَ وشكا، لكن اسمع لفـنِ الشكوى وإظهار العجزِ والضعفِ والافتقار منه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:

اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي وقلتَ حيلتي وهوانِ على الناس، يا أرحم الراحمين، إلى من تكلني إلى عدوٍ يتجهمني، أم إلى قريبٍ ملكته أمري، إن لم تكن ساخطاً عليَ فلا أُبالي، غير أن عافيتَك أوسعُ لي، أعوذ بنورِ وجهَك الكريم، الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات، وصلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن تُحلَ عليَ غضبَك أو تُنزلَ علي سخَطَك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوة إلا بك. هكذا كان صلي الله عليه وسلم ضراعة ونجوى لربه.

أيها الأخوة، لماذا نشكو إلى الناس، ونبث الضعف والهوان والهزيمة النفسية في مجالـسنا، وننـسى أو نتكاسل عن الشكوى لمن بيده الأمر من قبل ومن بعد:(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِـنْ كُـلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ).

أليس فينا من بينه وبين الله أسرار؟ أليس فينا أيها الأحبة أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم علـى الله لأبره، أليس فينا من يرفع يديه إلى الله في ظلمة الليل يسجد ويركع، ينتحب ويرفع الشكوى إلى الله.

فلنشكو إلى الله ولنقوي الصلة بالله: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).

ومن الأدعية في المصيبة والكرب والشدة والضيق ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم

الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم.

وفي رواية كان إذا حزبه أمر قال ذلك، قال النووي في شرح مسلم: هو حديث جليل ينبغي الاعتناء به والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة، وقال الطبراني كان السلف يدعون به ويسمونه دعاء الكرب.

وأخرج أبو داوود وأحمد عن أبي بكرة τ أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: دعوات المكروب، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفت عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت.

وأخرج الترمذي عن سعد ابن أبي وقاص τ قال، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : دعوت ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدعو بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له.

لما قالها يونس υ وهو في بطن الحوت، قال الله عز وجل: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)، قال ابن كثير في تفسيره: (وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)، أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا في هذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب بها عن سيد الأنبياء.

وأخرج مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إن لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها.

قالت فلما مات أبو سلمة قلت في نفسي أي المسلمين خير من أبي سلمة؟

أو بيت هاجر إلى رسول الله، ثم إني قلتها –أي الدعاء- فأخلف الله لي رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا فالاسترجاع ملجأ وملاذ لذوي المصائب، ومعناه باختصار: إن لله توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وإن إليه راجعون إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا.

إذا فالأمر كله لله، ولا ملجأ منه إلا إليه، والله عز وجل يقول: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

&&& إليكم أيها الأحبة أمثلة ومواقف للذين لجئوا إلى حصن الإيمان وسلاح الدعاء، وأدركوا أن المفزع بعد الإيمان هو الدعاء، السلاح الذي يستدفع به البلاء ويرد به شر القضاء.

عن أصبغ ابن زيد قال: مكثت أنا ومن عندي ثلاثا لم نطعم شيئا من الجوع، فخرجت إلي ابنتي الصغيرة وقالت يا أبتي الجوع، تشكو الجوع، قال فأتيت مكان الوضوء – انظروا إلى من اللجوء،

انظروا إلى من يلجئون- فتوضأت وصليت ركعتين، وألهمت دعاء دعوت به وفي آخره: اللهم افتح علي رزقا لا تجعل لأحد علي فيه منة، ولا لك علي فيه في الآخرة تبعة برحمتك يا أرحم الراحمين، ثم انصرفت إلى البيت فإذا بابنتي الكبيرة قامت إلي وقالت: يا أبه جاء رجل يقول أنه عمي بهذه الصرة من الدراهم وبحمال عليه دقيق وحمال عليه من كل شيء في السوق، وقال: أقرءوا أخي السلام وقول له إذا احتجت إلى شيء فأدعو بهذا الدعاء تأتيك حاجتك.

قال أصبغ ابن زيد والله ما كان لي أخو قط، ولا أعرف من كان هذا القائل، ولكن الله على كل شيء قدير.

وعن شقيق البلخي قال: كنت في بيتي قاعدا فقال لي أهلي قد ترى ما بهؤلاء الأطفال من الجوع، ولا يحل لك أن تحمل عليهم ما لا طاقة لهم به، قال فتوضأت — نرجع إلى السبب الذي كانوا يدورون حوله رضوان الله عليهم- فتوضأت وكان لي صديق لا يزال يقسم علي بالله إن يكون لي حاجة أعلمه بها ولا أكتمها عنه، فخطر ذكره ببالي، فلما خرجت من المترل مررت بالمسجد، فذكرت ما روي عن أبي جعفر قال: من عرضت له حاجة إلى مخلوق فليبدأ فيها بالله عز وجل، قال فدخلت المسجد فصليت ركعتين، فلما كنت في التشهد أفرغ علي النوم، فرأيت في منامي أنه قيل: يا شقيق أتدل العباد على الله ثم تنساه، يا شقيق أتدل العباد على الله ثم تنساه، قال فاستيقظت وعلمت أن ذلك تنبيه نبهني فيه ربي، فلم أخرج من المسجد حتى صليت العشاء الآخرة، ثم تركت الذهاب لصاحبي وتوكلت على الله، ثم انصرفت إلى المترل فوجدت الذي أردت أن اقصد قد حركه الله وأجرى لأهلي على يديه ما أغناهم.

إن ربي لسميع الدعاء، فلا نعجب أيها الأحبة، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

وأسمع لدعا أبن القيم في الفاتحة يقول: ومكثت بمكة مدة يعتريني أدوار لا أجد لها طبيبا ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيرا عجيبا، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألما، فكان كثير منهم يبرأ سريعا.

وفي حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه لما قرأ على سيد الحي الفاتحة قال: فكأنما نشط من عقال، وهذا يشهد أيضا بفضل الفاتحة.